جالسوا التوابين

كتبه

أبو محمد الأزهري

د شهاب الدين بن محمد أبو زهو

فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيه المعَاصِي وَوَقَعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَسْرِها، وَسَقَطُوا فِي بَرَاثِنِها، وأَنْشَبَتْ فِي قلوبهم مَخَالبَها، وَسَكَبَتْ مِنْ سوادِها فِي بياضِ القلوبِ مَا عَكَّرَ صَفْوَهَا، وَبَدَّلَ اتجاهَها، وحوَّلَ مَسَارَهَا... وَهِيَ تَسْعَى فِي طَرِيقِهَا نَحْوَ مَلِكِ المُلُوكِ جَلَّ شَأْنُهُ!!!

فِي زَمَنٍ هَذَا بَعْضُ مِمَّا يَقَعُ فِيه نَحتَاجُ إِلى نُورٍ يَهْدِي الحَائِرِينَ، وشُعَاعِ أَمَلٍ يَدُلُّ التَّائِهِينَ، وَرَحْمَةٍ تُذِيبُ قَسْوَةَ القُلُوبِ وَتَفْتَحُ البَابَ لِلْوَاقِفِينَ، وَذَلِكَ فِي اعْتِقَادِي يَكُونُ فِي ((**التَّوْبَةِ**)) مِفْتَاحِ اسْتِقَامَةِ المائِلِينَ، وَبِدَايَةِ طَرِيقِ العَابِدِينَ، وَأَوَّلِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، وَبَابِ الوَاصِلِينَ، وَرَأْسِ مَالِ الفَائِزِينَ، وَغَايَةِ العَارِفِينَ وَنِهَايَةِ أَوْلَيَاءِ اللهِ المقَرَّبَينَ، وَلِذَا عَلَيْنَا ((**مَجَالَسَةُ التَّوَّابِينَ**)).

فَالتَّوَّابُونَ أَهْلُ المحَبَّةِ الإِلهِيَّةَ؛ اقْرَأْ مِعِي قَوْلَ رَبِّ البَرِيَّةِ: {**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**} [البقرة: ٢٢٢].

وَنَقُولُ مَعَ الفَارُوقِ أَمِيرِ المؤْمِنينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «**جَالِسُوا التَّوَّابِينَ، فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً**»[(١)].

وَقَوْلُهُ: «**جَالِسُوا التَّوَّابِينَ**» لِيُشَاهِدُوا طَاعَاتِهِمْ وَيَنْقُلُوا نُفُوسَهُمْ مِنَ المعَاصِي، وَالطِّبَاعُ تَسْرِقُ مِنَ الجَلِيسِ الأَفْعَالَ التي تُشَاهَدُ مِنْهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَمَنْ جَالَسَ التَّوَّابِينَ اكْتَسَبَ مِنْ رِقَّةِ قَلُوبِهِمْ، وَنَصَحُوا عَلَيْهِ مَا يُعِيدُ أَوْ يَزِيدُ صَفَاءَ سِرِّهِ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ أَدْهَمَ القُدْوَةُ، الإِمَامُ، العَارِفُ، سَيِّدُ الزُّهَّادِ، سُلْطَانُ الأَوْلِيَاءِ (تُوفِّيَ: ١٦٢هـ): «**التَّوْبَةُ: الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ بِصَفَاءِ السِّرِّ**»[(٢)].

وَمَا أَلْطَفَ وَأَبْلَغَ وَصْفِ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الإِمَامِ، القُدْوَةِ، العَابِدِ (تُوفِّيَ: قَبْلَ ١٢٠هـ) حين قَالَ: «**قَلْبُ التَّائِبُ بِمَنْزِلَةِ الزُّجَاجَةِ، يُؤَثِّرُ فِيهَا جَمِيعُ مَا أَصَابَهَا، وَالْمَوْعِظَةُ إِلَى**

---

(١) انظر: الزهد لأحمد بن حنبل (ص:١٢٠)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥١/١)، الزهد لهناد (٤٥١/٢)، الزهد لوكيع (٣١٦/١، بترقيم الشاملة آليا)، التوبة لابن أبي الدنيا (ص: ٢٤٨، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) انظر: شعب الإيمان (٣٦٧/٩).

قُلُوبِهِمْ سَرِيعَةٌ، وَهُمْ إِلَى الرِّقَةِ أَقْرَبُ، فَدَاوُوهَا مِنَ الذُّنُوبِ بِالتَّوْبَةِ، فَلَرُبَّ تَائِبٍ دَعَتْهُ تَوْبَتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى أَوْفَدَتْهُ عَلَيْهَا، وَجَالِسُوا التَّوَّابِينَ؛ فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ إِلَى التَّوَّابِينَ أَقْرَبُ»(١).

"فَالتَّوْبَةُ مِنْ أَجَلِّ الطَّاعَاتِ وَأَوْجَبِهَا عَلَى المؤْمِنِينَ، وَأَعْظَمِهَا غَنَاءً(٢) عَنْهُمْ، وَهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَجُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ الطَّاعِاتِ إَلى اللهِ تَعَالى؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ أَعْظَمَ فَرَحٍ وَأَكْمَلَهُ.

وَإِذَا كَانَتْ بِهَذِهِ المثَابَةِ: فَالآتِي بِهَا آتٍ بِمَا هُوَ مِنْ أَفْضَلِ القُرَبَاتِ، وَأَجَلِّ الطَّاعَاتِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ بِالمعْصِيَةِ انْحِطَاطٌ وَنُزُولُ مَرْتَبَةٍ، فَبِالتَّوْبَةِ يَحْصُلُ لَهُ مَزِيدُ تَقَدُّمٍ، وَعُلُوِّ دَرَجَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَرَجَتُهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَعْلَى فَإِنَّهَا لاَ تَكُونُ أَنْزَلَ"(٣).

"وَمَنْزِلُ التَّوْبَةِ أَوَّلُ المنَازِلِ وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا، فَلاَ يُفَارِقُهُ العَبْدُ السَّالِكُ وَلاَ يَزَالُ فِيهِ إِلى المِمَاتِ، وَإِنِ ارْتَحَلَ إِلى مَنْزِلٍ آخَرَ – مِنْ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ – ارْتَحَلَ بِهِ وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ وَنَزَلَ بِهِ، فَالتَّوْبَةُ هِيَ بِدَايَةُ العَبْدِ وَنِهَايَتُهُ، وَحَاجَتُهُ إِلَيْهَا فِي النِّهَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ كَمَا أَنَّ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا فِي البِدَايَةِ كَذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: {**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**} [النور: ٣١]، وَهَذِهِ الآيَةُ فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ خَاطَبَ اللهُ بِهَا أَهْلَ الإِيمَانَ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ، ثُمَّ عَلَّقَ الفَلاَحَ بِالتَّوْبَةِ تَعْلِيقَ المسَبَّبِ بِسَبَبِهِ، وَأَتَى بِأَدَاةِ "لَعَلَّ" المشْعِرَةِ بِالتَّرَجِي إِيذَانًا بِأَنَّكُمْ إِذَا تُبْتُمْ كُنْتُمْ عَلَى رَجَاءَ الفَلاَحِ، فَلاَ يَرْجُو الفَلاَحَ إِلاَّ التَّائِبَونُ – جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ –"(٤).

وَفِي الخِتَامِ: أُهْدِي إِلَيْكُمْ حَدِيثًا عَجِيبًا مِنَ الهَدْيِ النَّبَوِيِّ: عَنِ الْأَغَرِّ – رَجُلٍ مِنْ جُهَيْنَةَ– أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٥).

---

(١)انظر: التوبة لابن أبي الدنيا (ص: ٣١٠، بترقيم الشاملة آليا)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/ ٢٥٠).

(٢) الغَنَاءُ: – بالفتح – النَّفْعُ. (لسان العرب: ١٥/ ١٣٥).

(٣)طريق الهجرتين (ص: ٣٥٥).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٧٨).

(٥)صحيح، أخرجه: **مسلم** (٢٧٠٢) (٤٢)، **وأحمد** ط الرسالة (٢٩/ ٣٩٠)، **والطيالسي** (١٢٠٢)، **وابن أبي شيبة** ١٠/ ٢٩٨ و١٣/ ٤٦١-٤٦٢، **والبخاري** في "التاريخ الكبير" ٢/ ٤٣، وفي "الأدب" (٦٢١)، **والنسائي** في "عمل اليوم والليلة" (٤٤٦) و (٤٤٧)،

يَاللَّهِ!! التَّائِبُ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ سَيِّدُ خَلْقِ اللهِ، وَأَشْرَفُ رُسُلِهِ، وَحَبِيبُهُ وَصَفِيُّهُ المَعْصُومُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!!

فَمَا بَالُنَا نَحْنُ الخَطَّاؤُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؟!!!

وَيَتَجَدَّدُ لِقَاؤُنَا مَعَ التَّوْبَةِ وَالتَّوَّابِينَ... فَتَابِعُونَا مَأْجُورِينَ.

وَالحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلاً وَآخِرًا، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وابن حبان (٩٢٩)، والطبراني في "الدعاء" (١٨٢٦)، **والبيهقي** في "شعب الإيمان" (٧٠٢٢)، وفي "الآداب" (١٠٢٤)، وفي "الدعوات الكبير" (١٣٨).